أضواء حول اتّجاهات صورة الممدوح للشّاعر ابن الحدّاد الوادي آشٍ في مديح (المعتصم بن صُمَادِحْ) حاكم دولة المريّة الأندلسيّة.

Lights on the directions of the picture of the Mamdouh by the poet Ibn Al-Haddad Al-Wadi Ash in praise of (Al-Mu'tasim bin Samadh) the ruler of the Andalusian state of Almeria.

عمار عبد الرحمن إسماعيل أمبدة *

[1] جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية (السّودان)، البريد الإلكتروني:ambdtmar@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/06/29 تاريخ القبول: 2021/07/23 تاريخ النشر: 2021/07/29

ملخص:

تناولت هذه الدّراسة اتّجاهات صورة الممدوح للشّاعر ابن الحدّاد الوادي آش في مديح (المعتصم بن صُمَادِحْ) حاكم دولة المريّة الأندلسيّة. وهدفت الدّراسة إلى معرفة مفهوم الصّورة الشّعريّة، ومن ثم الوقوف على اتّجاهات صورة الممدوح، والخصائص الفنيّة لصورة الممدوح. وسلكت الدّراسة المنهج الوصفي التّحليلي. توصلت الدّراسة إلى نتائج عديدة من حيث مُجملها: حاول الشّاعر المزج بين مجموعة من القيم السّمحة في وصف ممدوحه، كالشّجاعة، والكرم، ورجاحة العقل، وعزّة النفس. توصي الدّراسة بأنّ الشّعر الأندلسي غزير المادة العلميّة، متعدّد في أغراضه وأشكاله الفنّية، فيحتاج إلى الكثير من الدّراسات التّي تتناول هذه الجوانب.

الكلمات المفتاحيّة: صورة، الممدوح، ابن الحدّاد، المعتصم.

Abstract:

This study deals with the trends of the image of the Mamdouh by the poet Ibn Al-Haddad Al-Wadi Ash in the praise of (Al-Mu'tasim bin Samadh), the ruler of the Andalusian state of Almeria. The study aimed to know the concept of poetic image, And then stand on the directions of the image of the praised one, And the technical characteristics of the image of Mamdouh. The study followed the descriptive analytical method. The study reached several results in terms of the whole: The poet tried to combine a set of tolerant values in Mamdouha's description, as brave, generosity, peace of mind, Self esteem. The study recommends that Andalusian poetry is abundant in scientific material. versatile in its purposes and artistic forms, It needs a lot of studies that deal with these aspects.

Keywords: Image, Al-Mamdouh, Ibn Al-Haddad, Al-Mu'tasim.

مقدمة:

المؤلف المرسل*

كان شعر المديح في عصر الشّاعر ابن الحدّاد[1] (ابن أيبك،1420هـ/ 2000م، ص62) – وسيلة ارتزاق وأداة تزلّف للأمراء، ومن هنا يُعَدُّ ابن الحدّاد من الشّعراء المتكسّبين الذين اتّخذوا من الشّعر وسيلة للتّكسب. ففي مقطوعته الدّالية التّي يهنّئ فيها المؤتمن بن المقتدر بن هود- صاحب سرقسطة- بمولود، يقول فيها (المتقارب) :(ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص 203-204)

فَبَشِّرْ سماءَ السّنا والسّناءِ بنجم هُدىً لاحَ في آلِ هُودِ
هِلالٌ تألّقَ من بَدْرِ سَعْدٍ ومُزْنٌ تَخلَّقَ من بَحرِ جُودِ
شِهابٌ مِنَ النَّيِّرَيْنِ استَطارَ لإرْدَاءِ كلّ مَرِيدٍ عَنِيدِ
ونَصْلٌ إذا تمَّ منه انتِضاءٌ فَوَيْحَ العِدَا مِنْ مُبِيْرٍ مُبِيدِ
تَبيّنَ فيه كُمُونُ الذّكاءِ ويا رُبَّ نارٍ بِمُخْضَرّ عُودِ

وهنا نتساءل: كيف عرف ابن الحدّاد أنَّ مولود المؤتمن نجم هدى؟ أو هلالٌ متألّقٌ في بني هود؟ أو شهابُ حربٍ على الأعداء؟ أو نَصْلٌ يُبيدُ الأعداء؟ وكيف عرف أنّه سيتفجّر ذكاءً عندما يَشِبُّ ويكبر؟

ولهذا كُنّا نظنه يقول شعراً في المديح، لا لِبُعدهِ عن غاية المدح عند أغلب الشعراء ـ وهي التّكسب. ولكن حينما اطّلعنا على ديوانه، فوجئنا بكثرة قصائد المديح في ديوانه، مما جعلنا نعتقد أنه كان صادقاً في مدحه في بعض قصائده، وفي المقابل فإن ممدوحه- المعتصم بن صُمادِحْ- ([2]) (المراكشي، 1983م، ص167) الذي نال من الشّاعر هذه المدائح كان جديراً بهذا المديح.

وبهذا تأتي صور الممدوح واقعيّة معبّرة عن صفات الممدوح ممزوجة بالرّوح الأدبيّة التّي تعينه على تشكيل الصورة الشّكليّة والرّوحيّة للممدوح، ونراه يعبر عن واقع الحياة التّي يعيشها ويرسم صور شخصياتها كما يراهم بعين الإبداع لأنّ "شعر كل أمة من الأمم صورة منتزعة من واقعها وأحداثها، تستلهمه من تجاربها وصراعها مع ذلك الواقع وتلك الأحداث، تعبيراً عن مأساتها وتمثيلاً لكينونتها في عالم يعج بالحركة ويغتبط بجوهر الحياة"،(غزوان وآخرون،1974م، ص5) لذلك رسم الشّاعر صوراً لممدوحه استمدّها من محيطه الأدبي والاجتماعي والثقافي والسّياسي التّي تكوّن منها موروثه الثّقافي فاستعمل الصور وأداة رسمها من الأفكار والمعاني والألفاظ، التي تليق بوصف الممدوح.

أهمية الموضوع:

تأتي أهميّة هذا الموضوع أنّه يقدم دارسة أدبيّة نقديّة تحليليّة لأضواء حول اتّجاهات صورة الممدوح للشّاعر ابن الحدّاد الوادي آش في مديح (المعتصم بن صُمادِحْ) حاكم دولة المريّة الأندلسيّة.

مشكلة الموضوع:

إشكالية الموضوع تحديد دوافع صورة الممدوح للشّاعر ابن الحدّاد في مديح المعتصم بن صُمَادِحْ الذي جعله من أعظم الشّعراء في بلاطه، حتّى ارتفعت منزلته عند المعتصم إلى حدِّ أن أسْنَدَ إليه منصبيَ الدّيوان

[1] هو مُحمد بن أَحمد بن عثمان أَبو عبد الله القَيسِي الأندلسي، المعروف بابن الحداد. ولد في وادي آش إلا أنه استوطن المريّة منذ طفولته وقضى فيها أكثر عمره، ولازم بلاط ابن صمادح فاشتهر بمديح رؤسائهم.

[2] المعتصم بن صمادح: هو محمد بن أبي الأحوص مَعْن بن أبي يحيى محمد بن صُمادح، الذي حكم دولة المريّة بالأندلس فترة من الزّمان. كان المعتصم حسن السيرة في رعيّته وجنده وقرابته، يُعنى بالدِّين وإقامة الشّرع، فيعقد المجالس في قصره للمذاكرة، ويجلس يوماً في كل جمعة للفقهاء والخواص، فيتناظرون بين يديه في كتب التّفسير والحديث. كذلك كان المعتصم أديباً ذا شاعرية فذّة.

الكبير والوزارة معاً في دولة المريّة، رغم تنافس العديد من الشعراء حول بلاط المعتصم من أجل التّقرب إليه والأخذ من عطاياه.

حدود الموضوع:

1- حدود زمانية: فترة حياة ابن الحدّاد في دولة المريّة وهي خمسين سنة، وذلك على حسب رواية المؤرخين.

2- حدود مكانية: ما قيل من شعر لابن الحدّاد في دولة المريّة الأندلسيّة بحدودها الجغرافية المعروفة.

أهداف الموضوع: الهدف من دراسة الموضوع الآتي:

1- الوقوف على مفهوم الصّورة الشّعريّة التّي توصف بأنّها" نقل تجربة حسيّة، أو حالة عاطفيّة من الشّاعر.

2- التّعرف على اتّجاهات صورة الممدوح لابن الحدّاد في مديح المعتصم بن صُمَادِحْ.

3- معرفة الخصائص الفنيّة التّي زيّن بها ابن الحدّاد صورة ممدوحه المعتصم بن صُمَادِحْ.

منهج الموضوع:

اعتمد الباحث في هذا الموضوع على المنهج الوصفي التّحليلي الذي يعمل على إيراد النّص الأدبي، وتحليله تحليلاً يبرز ما يحويه النّص الشّعري.

هيكل الموضوع:

قسم الباحث هذا الموضوع إلى مقدمة، وخاتمة، وقائمة للمصادر والمراجع، ثم ثلاثة مباحث كالآتي:

المبحث الأوّل: مفهوم الصّورة الشّعرية.

المبحث الثّاني: اتّجاهات صورة الممدوح.

المبحث الثّالث: الخصائص الفنيّة لصورة الممدوح.

المبحث الأوّل

مفهوم الصّورة الشّعريّة

الصّورة في اللّغة تفيد معنى الشّكل فالصّورة هي الشّكل والهيئة والحقيقة والصنعة وكذلك النوع (الزبيدي، 1306هـ، ص357). وتكاد لاتخلو دراسة عن الصّورة إلا ووقفت على قول الجاحظ: "فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير" (الجاحظ، 1969م، ص132). فالشّعر عبارة عن صورة يرسمها الشّاعر بواسطة الألفاظ التّي تكون بمثابة الفرشاة والألوان للرّسام لكونها الوعاء الفنّي للّغة الشّعرية شكلاً ومضموناً (غزوان، 1994م، ص116) ؛لأنّ الصّورة "تشكيل لغوي، يكونها خيال الفنّان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدّمتها. فأغلب الصّور مستمدة من الحواس. إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النّفسيّة والعقليّة وإن كانت لا تأتي بقدر كثرة الصّور الحسيّة، أو يقدمها الشّاعر أحياناً كثيرة في صور حسيّة" (البطل،1981م، ص30). "فلذلك يمكن أن نصف الصّورة بأنّها" نقل تجربه حسيّة، أو حالة عاطفيّة من الشّاعر إلى المتلقي في (شكل فني) تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشّاعر في سياق بياني خاص ليعبّر عن جانب من جوانب التّجربة الشّعريّة الكاملة في القصيدة"(هدية،1984م، ص 47). فالتّصوير يعتمد على الحواس بشكل كبير لتحديد معالم الصّورة ؛ لأنّ التّصوير الشّعري هو جزء من النّمو الحسي.

وتتداخل الصّورة الحسيّة مع الصّورة الذّهنيّة لأنّ الثّانية بالضّرورة تعتمد على الأولى في نقل مدركات الصورة الذّهنية فهناك من يرى أن أساس الفن هو القدرة على تكوين الصور الذّهنية، أما إبراز الصور الحسيّة فعملية صناعية ومهارة (الصائغ، 1987م، ص 406). وهناك من النّقاد من حدّد الصّورة بأنها ذلك الشيء الذي يقدّم تشابكاً عقلياً وشعورياً في لحظة من الزّمن. وبهذا نجد تلاحم الصور بمختلف

أشكالها لاعتمادها على المادة الخام التّي هي الألفاظ والأفكار التّي يرتّبها الشّاعر في خياله وشعوره، إذ "إنّ الشعّور ليس شيئاً جديداً يضاف إلى الصور الحسيّة، بل هو الصورة نفسها" (عفيفي، 1978م، ص145). "وبذلك يوحد بين (المادي والحسي) و(الفكري والمعنوي) ويذيب الحدود المصطنعة بينهما فيتناغم الحسي مع الفكر من دون أن يفصله أو يتميز عنه" (عصفور، 1983م، ص343). وهنا يلعب خيال الشاعر دور كبير في رسم الصورة، ويحاول الشاعر دائماً خلق العلاقات التي تشير إلى الحالة أو الموقف أو التّصور، وأغلب هذه الحالات إنما هي تنبيه من الشاعر إلى الجو العام، العاطفي أو النفسي أو الفكري الذي يريد نقله إلى القارئ، وتختلف الصورة من قارئ لآخر فقد يحصل تداخل بين الصور إذ "تبدو شديدة اللمسية لقارئ يمكن أن تكون صورة بصرية تماماً لدى قارئ آخر، وتُعد الصورة الشعرية المرآة التّي تعكس أبداع الفنان، ومعرفة مكنون الشّاعر، وبهذا يكون "الاتّجاه إلى دراسة الصورة يعني الاتجاه إلى روح الشعر" (عباس،1955م، ص90).

المبحث الثّاني

اتّجاهات صورة الممدوح

قال ابن الحدّاد معظم شعر المديح في المعتصم بن صمادح، والقليل الباقي خصّصه لبني هود ملوك سرقسطة. وقد ذكر ذلك معظم الذين ترجموا له، فقال ابن بسّام :"وفي صمادح معظم شعره" (ابن بسام، 1981م، ص692). وقال ابن الأبّار:" اختصّ بالمعتصم محمد بن معن بن صمادح وفيه استفرغ مدائحه" (ابن الأبار، 1985م، ص83). وقال ابن عبد الملك:" وقد امتدح طائفة من ملوك الأندلس، واختصّ بالمعتصم أبي يحيى محمد بن معن بن صمادح وأكثر من امتداحه" (ابن الأبّار، 1415هـ/ 1995م، ص11). وغيرهم. ومن هنا نسلّط الضوء على ما جاء من صورٍ في مديح الشّاعر ابن الحدّاد للمعتصم ابن صمادح حاكم دولة المريّة بالأندلس، منها:

أولاً: صورة الممدوح الشّجاع:

شكّل مضمون الشّجاعة الحيّز الأكبر في رسم صور الممدوح عند ابن الحدّاد، وذلك يعود لاعتزاز العرب بهذه الخصلة التي يعتز ويفتخر بها الممدوح ويفرح حينما يصفونه بها بشكل عام واختص بها ابن الحدّاد بشكل خاص، ولايكاد يخلو ديوان أي شاعر في غرض المديح من هذه القيمة في وصف الممدوح إلى جانب الكرم والحلم وأصالة النسب وغيرها من القيم والمُثل العليا التي تُعد من أساسيات المديح، لذلك اتكأ عليها الشاعر في رسم صورة ممدوحه بذلك الشجاع الذي يذود عن حمى الإسلام ويهابه الشرك وأهله، وهو لا يهدف إلى تقريب دلالة الصورة من فهمنا، ولكن إلى إيجاد إدراك خاص للموضوع، وإلى خلق رؤيا له وليس إلى التّعرف عليه وبهذا تكون الصورة "الجزء الأكثر فنية في القصيدة" ومن جميل صور الشجاعة التي رسمها الشاعر للممدوحه قوله في مديح المعصتم بن صمادح راسماً له صورة الهيبة التي تخيف الأعداء "البسيط": (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص110-111)

إذا تـجـلّى إلى أبـصـارِهِمْ صَـعِـقُـوْا وإن تَـغَـلْـغَـلَ فـي أفـكـارِهِـمْ هَـمَـأُوْا
لو أَغْلَظَ المَلْكُ أَمْراً فيهِمُ ائتَمروا لو اقـتـضـى الجـيـشُ رَدّاً منهُمُ رَدَأَوْا
وكـلُّ مـا شـاءَ مِـنْ حُـكْـمٍ ومُـحْـتَـكَـمٍ يـمـضي على ما أحبُّوا منه أو نَدَأُوْا

استخدم الشاعر تقنية الحواس في رسم الصورة المتمثلة بلوازم الصورة البصرية والسمعية "إذا تجلى إلى أبصارهم، ائتمروا، أحبّوا..." وبؤرة الصورة هي الهيبة التي تُعد من دلالات الشجاعة ففي هذا

النّص مزج الشاعر الحسي بالمعنوي، وذلك؛ لأن الحواس هي أهم الوسائل في تشكيل الصورة؛ لأنها تمد الخيال بمعطيات تساعد على تركيب صورة جديدة لها علاقة في الواقع ولكن فيها لمسات فنية ترتقي بها عن الواقع المادي "فالجانب الحسي أساسي في الصور" وبهذا نلاحظ صورة محسوسة يمكن تخيلها فالشاعر يحاول أن يجعل للممدوح مكانة عالية بين الملوك الآخرين؛ فلذلك استخدم الشاعر عبارة "صعقوا" للدلالة على قوة الممدوح التي تجعل الأعداء يخرّون له ميّتين، فيغشى عليهم ويذهب عقلهم من صوته، ومنه قوله تعالى: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ...}** (الزّمر، 68). وفيه مبالغة في وصف هيبة الممدوح ووصف خوف أعدائه الذين يتلعثمون أمامه فلا يدرون كيف يتحركون في ساحة الوغى. ويزيد الشّاعر من فنية الصورة التي توحي بأجزائها كافة على رسم الممدوح بالشجاعة والعلو، جاعلاً أوامر المعتصم مسموعة ومنفّذة من قبل أعدائه يمتثلون لها وإن كانت لغير صالحهم سواءً أحبوا ذلك أم كرهوا.

ونجد أيضاً الشاعر في نص آخر يحاول أن يرسم صورة للممدوح يكون فيها أكثر مبالغة، إذ يجعل الأسود مذعورةً من المعتصم، وفي الغالب كنا نجد من صفات الأسود العظمة والخوف منها، ولكن صورة الشاعر هنا أكثر بلاغة إذ عكس التصور السائد للرفع من شأن ممدوحه وتعظيم هيبته وشجاعته، قائلاً "البسيط": (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص124)

وكم لِبَاسِكَ فيهمْ من مَصالٍ وَغىً لِلَّيْثِ من سَمْعِهِ رَوْعٌ ومُجْتَبأُ

تتضح هنا صورة الممدوح الشجاع؛ إذ يجعل الشاعرُ من ذعر الأسود قرائن ودلائل تشير إلى هيبة الممدوح، فحركة صولاته وجولاته كانت قهراً لأعدائه، حتّى الأسود، إذا ما سمعت بها، فزعت فاجتمعت في عُرُنها خائفة من بأسه مذعورة. والصورة في مجملها تحمل دلالة هيبة الممدوح وشجاعته.

ينتقل الشاعر إلى رسم صورة أكثر مبالغة لهيبة ممدوحه وشجاعته، فهو ذلك الشجاع الذي لا يمكن الوقوف أمامه أو تحدّيه، فلحظه في أرض المعركة كالسيف القاطع "البسيط": (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص250)

تَكَادُ تَغْنَى إذا شَاهدْتَ مُعْتَركاً عَنْ أنْ يُسَلَّ حُسامٌ أو يُسالَ دَمُ
بِلَحْظَةٍ مِنْكَ يُثْنَى القِرْنُ مُنْعَفِراً كأنَّ لحظك فيه صارمٌ خَذِمُ
أقْدَمْتَ حيثُ الكُماةُ الشُّوْسُ مُحْجِمَةٌ وَجُدْتَ حيثُ المنايا السُّوْدُ تَزْدَحِمُ

تحمل هذه الأبيات دلالات عميقة، فدلالة لحظ المعتصم الذي يقوم مقام السيف القاطع في أرض المعركة، تحمل كل معاني الشجاعة والإقدام والهيبة وشدة البطش وما يدور في ذهن المتلقي من هذه الأمور.

وفي صورة أخرى لوصف هيبة الممدوح وشجاعته يقول ابن الحدّاد في المعتصم "البسيط": (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص135)

يجيءُ كالهَصِرِ الفَضْفاضِ مقتتلاً أَصَمُ كالأرقمِ النَضْناضِ إذْ يَجَأُ
وللمَنُوْنِ بِيُمْنَاهُ عُيُونُ دِمَا في جدولٍ يتحامَى وِرْدَهُ الظَّمَأ
فراح نحو دَمِ الأبطال تَحْسِبُهُ راحاً لها بالقَنا العَسّالِ مُسْتَبَأُ
في مَوْقِفٍ للمَنَايَا فيه مُرْتَكَضٌ على الجِيَادِ وللأجْنَادِ مُنْهَدَأُ

وفي الأبيات عبارات تدل على شجاعة الممدوح فهو "كالصهر، كالأرقم" مما يدل على قدومه لأرض المعركة كالأسد الذي يهجم على فريسته، وإذا ضرب عدوّه بسيفه أماته في حينه، فهو كالأرقم الذي إذا نهش قتل من ساعته. حيث يجوب أرض المعترك بجياده النشطة، مما يجعل دم أعدائه وهو ينصبُّ من كُلاهُمْ ومفاصلهم بسمر رماحه الذّوابل، خُمراً ابتاعها وأدارها كؤوساً عليه وعلى نَدْمانه.

ولا يقف الشاعر عند هذا الحد في رسم صور ممدوحه الشجاع، حيث قال واصفاً لكل ما يملكه الممدوح من عزم وحزم أذلت الملوك الآخرين، ممزوجة بصورة الجيش الذي يحيط به دلالة على ما يمتلكه من قوة وتأييد، قائلاً "البسيط": (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص220-221)

وحيثُ ما أَزْمَعَتْ عُلْياكَ واعْتزمَتْ حَدَا جَحافِلَكَ التأييدُ والحَدأُ
فلا تَضَعْ مَرْبَأً للجيشِ تَنْهَدُهُ فالنصرُ مُرْتَبِئٌ والسَّعْدُ مُرْتَبَأُ
تَحِيْدُ عن أُفْقِكَ الأملاكُ مُجْفِلَةٌ ولا تُحَوِّمُ حيثُ اللَّقْوَةُ الحِدَأُ
فَوَيْحَهُمْ يومَ للأعلامِ مُلْتَطَمٌ عليهِمُ وبِهِمْ للجُرْدِ مُلْتَطَأُ
وَوَيْلَهُمْ إنْ شآبيبُ القَنَا هَمَأَتْ وحاقَ باللامِ والأجسامِ مُنْهَمَأُ

امتزج الحسي بالذهني في رسم الصور، وذلك لأن الحس يُعد من أساسيات الصورة إذ " لا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن" فصورة إصدار الأوامر العليا، وأسراع الجحافل إلى أرض المعركة من قبل إشارة الممدوح دلالة على قوته وشجاعته وحزمه، فويحٌ وويلٌ لأعداء المعتصم يوم تُلاحقهم طعنات رماحه المتتالية فتمزّق أجسادهم وتقطّعها إرباً إرباً، وترفسهم خيله بأرجلها.

ثانياً: صورة الممدوح الكريم:

الكرم إحدى الخصال التّي تلازم المديح دائماً، فهي سمة عربية قديمة ثم أقرّها الإسلام واعتزّ بها العرب على مر العصور ورسّخها الإسلام في النّفس وحثّ عليها ودخلت في الموروث الثّقافي ضمن مخيلة الشّاعر وامتزجت في شعره وهناك صور أصبحت متوارثة في الدّلالة على الكرم فمنها وصف الممدوح بالبحر والمطر دلالةً على كثرة العطاء، كما خلّد التّاريخ شخصيات أصبحت رموزاً للكرم كحاتم الطائي، إذ تحوّلت هذه الشّخصية إلى رمز ودلالة على الكرم كالبحر والغيث وسواها لذلك عمد الشّاعر ابن الحدّاد إلى رسم صورة لممدوحه مطبوعة بطابع الكرم، ويجسّد الشّاعر صورة الممدوح الكريم من خلال استدعاء صورة الكرم المتمثلة باليد المعطاء، قائلاً في مدح المعتصم "الطويل": (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص265)

فَتى البأس والجودِ اللّذينِ تَبَاريَا إلى غايةٍ حازا له قَصَبَاتِهَا
تدينُ يداهُ دين كعبٍ وحاتمٍ فَحَتْمٌ عليها الدّهرَ وصْلُ صِلاتِهَا
يُجاهدُ في ذات النّدى بيتُ مالِها ولا جيش إلّا مِنْ أكُفّ عُفاتِها

عبّر الشّاعر عن صورة الممدوح الكريم باستدعاء لوازم الكرم (اليد، بيت المال ...) فهذه كلها دلالات الكرم، فاليد تحمل دلاله العطاء من جهة، وبيت مال المعتصم من جهةٍ أخرى دلالة على إغداق المال لطالبي المعروف. فالمعتصم بذَّ أقرانه من ملوك الطّوائف في البأس والجود معاً، وإن جوده ونواله على دين كعب وحاتم، اللّذين يضرب بهما المثل في جودهما وعطائهما. وبيته في حرب دائمة، وهدفه من هذه الحرب هو إغداق المال على طالب المعروف الذين أصبحوا لكثرتهم يشكلون جيشاً عديد الحصى. والشّاعر حين جعل بيت المال إنساناً مكافحاً إنّما يوفّق أيّما توفيق.

يبالغ الشّاعر في رسم صورة الممدوح الكريم حتى أنه أكثر جوداً من الجود. يقول "الطويل" :(ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص192)

جَوادٌ لو أنّ الجُودَ بارى يَمِينهُ لكان قرار الحربِ في النّاس سَرْمَدَا
ذكيٌّ لو أنّ الشمس تحوي ذكاءه لَمَا وجدَ الظّمآنُ للماءِ مَوْرِدَا

فالممدوح أكثر جوداً من الجود الذي إذا ما حركه المعتصم فاض من يمناه وانهمل. ولولا المعتصم لافتقر النّاس وماتوا من شدة العطش والجوع معاً. وهنا مبالغة من الشّاعر واضحة؛ هدفه منها الحصول على أكبر صلة ممكنة من الممدوح.

وإذا انتقلنا إلى صورة أخرى من صور الكرم التي رسمها الشّاعر للمعتصم بن صمادح نجدها عميقة وبليغة، وذلك كقوله "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص199-200)

كأنّ يَدَ الملك ابن معنٍ محمدٍ تُفجّرهُ من منبع الجود والرّفدِ
وقد وردتْ من غَمْرِهِ نهل القطا كما ازدحمت في كفّه قُبَلُ الوفد
مفيضُ الأيادي فوق أدنى وأرفعٍ وصوبُ الغوادي شاملُ الغورِ والنّجدِ
فمِنْ جودِهِ ما في الغمامة من حيا ومن نوره ما في الغزالة من وقد

حاول الشّاعر تعميق صورة الكرم للممدوح حين جعل المعتصم أكثر عطاءً لكلّ النّاس من ذلك النّهر الفيّاض، وشبه ازدحام طير القطا العِطَاش، وهي ترد ماء النّهر للأرتواء منه، بازدحام الناس وهم يقبّلون راحة المعتصم تعبيراً عن شكرهم إياه لفضله. وغلو الشاعر واضح في وصف كرم الممدوح بحيث جعل الغمامة تمتلئ مطراً من جوده، وجعل الشمس تقتبس نورها من إشراقة وجهه أو من نور عدله.

ومن صور الكرم للممدوح مثل قوله "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص261-262)

تَسُحُّ بأهواء الورى منه راحةٌ شآبيبها فيها لجينٌ وعِقْيانُ
وما كيمينه الفرات وجلة وإن حكموا أنّ المريّة بغدان

وصورة الكرم تبدو واضحة في هذه الأبيات، فالمعتصم مِعطاء يوزّع الأعطيات على الورى لُجيناً وعقيناً. ويبالغ الشاعر حين جعل راحتَي المعتصم أكثر إغداقاً من نهريَ الفرات ودجلة.

ويقول ابن الحدّاد في صورةٍ أخرى للممدوح "الكامل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص291)

شادَ ابن معْنٍ في تُجيبَ مكارماً ليستْ لمعن في بني شيبان
يا من يضيف إليه حاتم طيّءٍ مرعىً ولكن ليس كالسّعدان

فمكارم المعتصم لا تدانيها مكارم معن بن مالك بن أُعْصُر، التي تنسب إليه قبيلة ابن شيبان في الجاهلية. وحاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الكرم والجود ما هو إلّا نقطة في بحر مكارم المعتصم.

وفي صورةٍ أخرى لكرم الممدوح التي فاق فيها المعتصم جميع ملوك الأرض يقول الشاعر "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص218- 219)

وما اختبارٌ كأخبار وما ملك إلّا ابن مَعْنٍ وذر قوماً وما ذرأوا
تُغني أياديه ما تغني صوارمه وللغناء هو الإقلال والفنأُ
سِيّانِ منه فتوحٌ في العدى طرأتْ ومعتفون على إنعامه طرأوا
فكم أناسٍ أقاصٍ عنده نهبوا كأنهم قربةٌ في حجره نشأوا
وكيفى تحصى عوافي مرتعٍ مَرِعٍ للهائمين به مروىً ومُحتصأ

وفي هذا النّص يشير الشّاعر إلى كرم الممدوح الفيّاض الذي يعود إليه الأمر في غنى النّاس أو فقرهم، وكم من الشعراء والعلماء وعامة النّاس الذين يأتون إليه طالبين معروفه، فهو بدوره يسقيهم ويطعمهم على النيران المشتعلة دائماً. وكأنما أراد الشّاعر أن يذكرنا بكرم حاتم الطائي الذي كان يوقد ناراً مشتعلة يهتدي بها الضّال والمسافر والغريب فيجدون عنده المأوى والطّعام، وفي ذلك يقول لغلامه: "الكامل":(الطّائي، 1423هـ/2002م، ص59)

أَوْقِدْ فَإِنّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قَرٌّ وَالرِّيحَ يَا مُوقِدُ رِيحٌ صِرٌّ

عَسَـى يَــرى نَارَكَ مَنْ يَمُـرُّ إنْ جَلَبَــتْ ضَيْفـاً فَأَنْــتَ حُرُّ

ثالثاً: صورة الممدوح الصّالح:

يتجه الشاعر في كثير من صوره إلى إضفاء الصفات الصالحة على ممدوحه إذ كان ينتزع كثيراً من الصور التي تجعل الممدوح أكثر بهاءً وإشراقاً وهدايةً بين النّاس، مثل قوله "البسيط" :(ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص111- 114)

أغرُّ في مجده الأعلى وغُرّتِهِ للُّبِّ مُنْحسِنٌ واللّحظُ مُنْخَسَأُ

وفي سَناهُ ومَسْناهُ ونائِلِهِ للشُّهب والسُّحبِ مُسْتحياً ومُنضنأُ

جلالةُ لسليمان ومُلْتَمَحٌ ليوسف يوم للنِّسوان مُتَّكأُ

والكلُّ مُعْترِفٌ بالسّابقاتِ له ومَنْ زكا فله بالحقِّ منزكأُ

مُمَلّكٌ هو من سَمْتِ الهدى مَلْكٌ وواحدٌ هو في شيد العلى مَلأُ

يَقِلُّ أن يطأ العَيُّوقُ أخْمصهُ وكلُّ ملْكٍ على أعقابه يطأُ

يصور الشّاعر ممدوحه بالتّقي الصالح فهو الذي يتّقي ربه في السّراء والضّراء اتّجاه رعيته، مما جعل كل ملوك الأندلس يُقِرُّون بذلك، ويسيرون على هداه ويأتمرون بأوامره، وهذا الصّلاح لا يأتي اعتباطاً وإنّما نتيجة عمل صالح، حيث أن المعتصم قِوام طريق الهدى ونظامه وما يعتمد عليه فيه. وبهذا يحاول الشاعر نقل صورة الممدوح إلى صورة وجهه المشرق الذي يفيض نوراً وبهاءً، انثنت عنه عيون النّاظرين ومالت بحيث لم تعد قادر على النّظر إليه من شدّة صلاحه. ويبالغ الشّاعر في رسمه لصورة ممدوحه الصالح حين يجعل المعتصم يفوق سليمان- عليه السلام- في الجلالة، ويوسف- عليه السلام- في الحسن، إنّما يبالغ أيّما مبالغة، مقترناً بذلك قول ابن هانئ الأندلسي، حين جعل الخليفة المعز لدين الله ربّ العالمين حيناً، والرسول محمد- صلى الله عليه وسلم- حيناً آخر "الكامل" :(ابن هانئ، ب ت، ص146)

ما شِئْتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ فاحكمْ فأنتَ الواحدُ القهّارُ

وكأنّما أنت النبيُّ محمدٌ وكأنّما أنصارُكُ الأنصارُ

ويستمر الشّاعر في تعدُّد صفات صلاح الممدوح (كالعدل، والابتعاد عن طريق الجور، واجتناب المعاصي ...) يقول "البسيط": (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص115- 116)

حوى المحاسنَ في قولٍ وفي عملٍ فمثلَ مهْنَئِهِ الأملاكُ ما هنأوا

وللثُّغورِ بذكرى عدله ولعٌ وللقلوب لمثوى حبّهِ لطأُ

والمالكون سواه مثْلُ عصرهم فكلّما دَنأتْ أحداثُهُ دنأُوا

والعدلُ ألْزمُ ما تُعْنى الملوكُ به فَلْيُزْجَرُوا عن سبيل الحَيْفِ ولْيزأُوا

وكيفَ يلْقَى قناةَ الدّهر قائمةً وفوقنا لِقسِيّ الشهبِ مُنْحنأُ

فالدّهرُ ظلماءُ والمعصومُ نورُ هُدىً يُضيءُ والشمسُ في أنوارها تضأُ

يسترسل الشّاعر في رسم الصفات الصّالحة للممدوح الذي جعل جميع الناس مولعون بالحديث عن عدله، فتعلّقوا به أيّما تعلق حينما اجتنب المعاصي وابتعد عن طريق الجور واساءت معاملت الناس، بخلاف ملوك الأندلس الآخرين الذين تتبدّل أوضاعهم بتبدّل مجريات أحداث الدهر، فكلّما ساءت أحداثه ساءت معاملتهم للناس ونهجوا طريق الجور. كل هذا جعل المعتصم مكلّل بتاج النّصر في كُلِّ مصيبةٍ صغيرةٍ

وكبيرةٍ، ومعصومٌ من الله سبحانه وتعالى من كُلّ مكروه، حتّى أصبح نور عدله يشعُّ هدىً على العالمين، فيسابق الشمس وهي في كامل شروقها.

وصلاح المعتصم كان له دافعاً قويّاً للنّصر على أعدائه في جميع غزواته يقول "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص120)

وحيثُ ما أزْمَعَتْ عُلياكَ واعتزمتْ حَدَا جَحافِلكَ التأييدُ والحدأُ

فى تضع مَرْبَأً للجيشِ تَنْهدهُ فالنصرُ مُرْتَبِئٌ والسّعْدُ مُرْتَبَأُ

الصورة الصالحة التي رسمها الشاعر للممدوح توحي بأن النّصر دائماً معه في كل غزواته، فهو نصرٌ من الله تعالى وفتحٌ مبين. وهنا يوفّق الشاعر حين يشخّص النصر فيجعله إنساناً يقوم فوق مرتفع من الأرض يراقب تحركات العدو عن كثب.

وبالرغم من انتصارات المعتصم المتواصلة على أعدائه؛ إلّا أنه اتّصف بالتّقوى وعدم القسوة في معاقبته لهم "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص125)

راعيتَ تقواكَ حتى في جزائهم وما رعوا ما تُراعيه ولا كلأوا

فهو رجلٌ تقيٌّ، ابتعد عن القسوة حتى في معاقبتهم جزاء ما فعلوا، ورغم ذلك فإن عهدك لم يحفظوا.

ومن هنا كان المعتصم صالحاً أيّما صلاحاً؛ فصلاحه واضح كوضوح الشّمس التي تجعل العيون تنخفض لشدة نورها "الكامل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص244)

مُتلألئٌ يَثْني العيون نَواكِساً كالشمسِ تعكس لحظ من يتأمّلُ

إن وجه الممدوح متلألئ منير يجعل العيون تنخفض لشدة نوره. وهنا يذهب مذهب أبي زيد عبد الرحمن بن مُقانا الأشْبُوني في قوله من قصيدة نونية مشهورة قالها في مدح أبي العلا إدريس بن يحيى بن علي بن حمود بمناسبة بيعته بمالقة "الرمل" :(التلمساني، 1979م، ص214).

وكأنّ الشّمس لمّا أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه إدريس بن يحيى بن علي ابن حمّودٍ أمير المؤمنين

رابعاً: صورة الممدوح الرّاجح العقل:

تمثل رجاحة العقل إحدى القيم الأساسية في المديح منذ الجاهلية وإلى يومنا هذا، ولم يغفل الشاعر هذه القيمة الجمالية والمثالية في رسم صورة الممدوح، فإلى جانب شجاعته وكرمه وورعه، فهو راجح العقل، ولايمكن الفصل بين هذه القيم فهي مرتبطة الواحدة بالأخرى، حتى في الشعر نجدها تأتي متلازمة الواحدة إلى جانب الأخرى، وتقسيمنا لها في هذا البحث لا يعني الفصل بينهم أو تمييز إحداهم على الأخرى، ولكن هي محاولة لتقصي أجزاء صورة الممدوح والإحاطة بجوانبها كافة، ولكن هي في النهاية قيم مترابطة لايمكن فصلها.

وتتصف صورة الممدوح بامتلاكه للسّماح والإقدام والعفّة، وله من الحلم ما يستطيع به أن يملك نفسه عند الغضب، يقول "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص175)

كأنّك في الأمْلاكِ نُقطةُ دائرٍ وأمْلاكُها منها خطوطٌ خوارجُ

سماحٌ وإقدامٌ وحِلْمٌ وعفّةٌ مُزِجْنَ فأبْدَى مُهجةَ الفضل مازِجُ

فقد صَاكَ مِنْ فَضلِ العوالِمِ طيبُهُ وهل يكتُمُ المِسكَ الذّكيّ نَوافِجُ

مَسَاعٍ أحلّتْكَ العلا فكأنّها مَرَاقٍ إلى حيث السُّها ومعارجُ

فنلاحظ هنا أنه قد اجتمع العديد من القيم في الممدوح مما ساعد على تشكيل صورة واضحة عنه، والتي اعتمد فيها الشاعر على تقنية الصورة الذهنية من خلال استدعاء مستلزماتها وبخاصة في الألفاظ

"السماح، الإقدام، الحلم، العفّة ... " التي تدخل في دائرة رجاحة العقل. ولعل ما ورد فيها هو إشارة إلى صفات المسلم من السّماح والعفو عند المقدرة، والحلم عند الغضب. فالمآثر الحميدة التي انفرد بها المعتصم عن بقيّة ملوك الطّوائف انتشرت بين النّاس كالمسك أثناء خروجه من الوعاء، وجعلت منزلته بين الكواكب والنّجوم. وشتّان ما بين الثُّريّا والثَّرَى؛ فالثُّريّا أو السُّها منزلته، والثَّرى منزلة بقية الملوك.

وفي صورة أخرى يمتزج الحسي بالذهني في رسم صورة الممدوح الرّاجح العقل الذي يستطيع تدبير أمور البلاد بالرأي السديد والعزم والحزم، ومن ذلك قول الشّاعر "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص191-192)

وإنْ تَبْغِ إحساناً وإحمادَ مَقْصدٍ فَحسبُكَ أن تلقى ابن مَعْنٍ مُحمّدا
حليمٌ وقَد خَفّتْ حُلُومٌ فلو سرى بِعُنْصُرِ نارٍ حِلْمُهُ ما تصعّدا
جَوادٌ لو أنّ الجُودَ بارى يَمِينهُ لكان قرار الحربِ في النّاس سَرْمَدَا
ذكيٌّ لو أنّ الشمس تحوي ذكاءه لَمَا وجدَ الظّمآنُ للماءِ مَوْرِدَا
ولو في الحِدادِ البيضِ حِدّهُ ذِهْنِهِ لما صَاغَ داودُ الدِّلاصَ المُسرّدَا

استخدم الشاعر تقنيته في رسم صورة الممدوح فلديه إحسان يجعلك تعيش عزيزاً في كنفه، وذكاءً فيه سرعة فطنة، ورجاحة عقل نيّر يجلو عن الدّين والدّنيا الدّياجير، ويبالغ الشّاعر أيّما مبالغة حين جعل ذهن المعتصم أكثر حدّة من السيوف القاطعة، فهو يعتمد على ذهنه في السّلم؛ وحتى في الحرب بدلاً من الدّروع. وبهذا فكأنّما تفوقّ على النبي داوود- عليه السلام- حين استعان بالدّلاص المسرّد أي:"الدّرع" الذي يقي صاحبه من طعنات السّيوف. وعلى كلّ حال فالمعاني التي أسبغها الشّاعر على ممدوحه في هذه الأبيات تنحصر في الجود، ورجاحة العقل، والذّكاء وحدّة الذهن، وهي معانٍ شائعة ومطروقة من قبل المشارقة.

ومن صورة الممدوح الرّاجح العقل "الصبر على المصائب التي تحلّ بالإنسان في حياته"، ومنها قول الشّاعر "الكامل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص284)

إنْ كان عُظْمُ الرُّزْءِ أصْبحَ كافراً بِتجَلُّدٍ لا تُمْسِ إلّا مُؤمنا
صبراً وإن جَلَّ المُصابُ وسلْوةٌ فإليهما حَكَمَ الحِجى أنْ تَرْكُنَا
والبِرُّ يقضي أنْ تكون مُعظّماً والحجرُ يقضي أن تكون مُهَوّنا

وفي الأبيات يشير الشّاعر إلى المصيبة التي حلّت بالمعتصم وهي: (موت والدته) فقابل هذه المصيبة بالرّكْنِ إلى الصّبر والسّلوة؛ وذلك ببصيرة ثاقبة وعقل راجح، مؤمناً عاملاً بقول الله تعالى:**{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}**. (آل عمران، 185)

ورجاحة العقل عند المعتصم تتمثل أيضاً في كيفيّة القضاء على مظاهر الظلم والفساد، فهو صاحب مكائد يكمن لأعدائه المفسدين، وكونُ الحرب خدعة فإنّ الظفر بها يكون بحسن التّدبير والحزم لا بمجرد الشّجاعة والإقدام، فنفاذ الرأي في الحرب أنفذ من الطّعن والضرب. وفي المثل "إذَا لَمْ تَغْلُبْ فَاخْلُبْ".(أبو علي، 1401 هـ / 1981م، ص76) أي إذا لَمْ تنلْ حاجتك بالغلبة فتسبَّبْ لنوالها بالخديعة. وفي ذلك قال الشّاعر "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص126)

وهِمَّةٌ فَوْقَ ما ظَنَّ الغُواةُ به والقومُ آمنةٌ إنْ أمكنَ الغَوَأُ
والخلقُ من ملكاتِ الظُّلم في ظُلمٍ وقد مَضتْ هِنأٌ من بعدها هِنَأُ
ومُخْلِبٍ منه للأهواء مُخْتَلِبُ ومُرْتمٍ فيه للعلياء مُرْتمأُ

والصورة التي رسمها الشّاعر لممدوحه بالزّحف على الغُواة وتهديهم في عقر دارهم، والكمن لهم في كل لحظة، ما هي إلّا نتيجة لانتشار ظلهم وفسادهم في البلاد. وإذا ما انتشر الفساد في البلاد فإن الرّعية ستبقى مطمئنّة للمعتصم واثقة من أنه سيقضي عليه وسيقتلعه من جذوره في وقت قصير جداً. ومن ثم يترك الأرض ساكنة لا رفث فيها ولا فسوق، وبذلك تختفي كل مظاهر الظلم والفساد.

والمعتصم بهذا العقل الرّاجح يعينك على طلبك، ويبعد عنك صروف الدهر ونوائبه، يقول "الكامل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص291)

وَمَلاكُ بُغْيَتِكَ المَليكُ مُحمّدٌ يَمّمْهُ تُحْمَدْ صَرْفَ كلِّ زَمَانِ

خامساً: صورة الممدوح عزيز النّفس:

لكل شخص عزة نفس يتميّز بها عن غيره من الآخرين، وإنّ صفة القوة بالشّخص تجعله يتحلّى بصفات لا توجد عند شخص آخر، وإنّ عزة النفس هي تجاهل الأشخاص لكل المواضيع التّي تقلّل من شأنهم سواء أمام الجميع أو أمام أنفسهم، ومن هنا يعمد الشّاعر إلى رسم صورة ممدوحه العزيز وسط الآخرين بقوله "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص128)

مَلكٌ لهُ العِزُّ من ذاتٍ ومن سلفٍ فَحَسْبُ كلّ الملوكِ الهونُ والجزأُ

نَمَتْهُ بدْراً نجوم السَّرْوِ من يمنٍ وما كمثلِ النّجوم النّقعُ والحَيأُ

تَكَسَّبَا عصرهُ فخراً وعُنصُرُهُ فقد علا الفَلَكَ الأعلى به سبأُ

والأبيات توضّح مكانة المعتصم بين النّاس؛ إذ هو عزيز على غيره، فنشأ في سماء المجد والعز، ونشأ غيره من الملوك في مستنقعات الذّل والهوان، إذ لا تتساوى النّجوم مع الأرض الحرّة الطين التي يستنقع فيها الماء. وصورة عزّ المعتصم هذا اكتسبها من أجداده، فجعلت له منزلة عالية بين الملوك، ولِمَ لا تتيه به الدّنيا وتفتخر به الرّعية ويَزْهَى به القصر وهو الذي علا به سبأُ الفلكَ الأعلى؟

ومن صور عزّة النّفس التي يتمتّع بها المعتصم، اتّجه الشّاعر في غرض المديح إلى بيان صورة عظمة ممدوحه، وذلك مثل قوله "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص150)

كأنّ علاهُ دولةٌ أمويّةٌ وما نابَ من خَطْبٍ عُميرٌ وضابىءُ

استخدم الشّاعر أسلوب التشبيه في رسم صورة عظمة ممدوحه، حين جعل عظمة المعتصم تشبه عظمة بني أمية من جهة وكثرة مال نال ضابىء([3]) (الجمحي، ب ت، ص17-72).

وابنه عمير([4]) (ابن قتيبة، 1423هـ، ص340) من خطوب من جهة أخرى. ولكنّ المعتصم تجاوز في مجده وعظمته، ما بلغته بنو أمية من عزّ ومجد في فترة ازدهارها بالأندلس والمشرق معاً، وما أصاب كلًّا من ضابىء وابنه عمير من شدائد ومكاره الدّهر.

---

[3] هو ضابىء بن الحارث بن أرطاة بن قيس بن تميم من البراجم. عدّه ابن سلّام الجمحي في الطّبقة التّاسعة من شعراء الإسلام. كان ضابىء رجلاً بذيًّا كثير الشّر، سجنه عثمان بن عفان- رضي الله عنه- في جناية جناها، ولم يزل في السجن حتّى مات نحو 30هـ، وكان أراد أن يفتك بعثمان- رضي الله عنه- فقال في السجن:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكِدْتُ ولَيتنِي تركتُ على عثمان تبكي حلائِلُهْ

[4] هو عمير بن ضابىء. ولمّا قتل عثمان بن عفان- رضي الله عنه- جاء عمير بن ضابىء فرفسه برجله، ويقال: كسّر صلبه أو ضلعاً له. ولمّا كان زمن الحجاج بن يوسف قال عَنْبَسَة بن سعيد العاص للحجاج: هذا عمير الذي رفس عثمان وهو مقتول، فما كان من الحجاج أن قتله سنة 75هـ وذلك بضرب رقبته. وفي ذلك قال الشّاعر:

فالمعتصم يمتلك صورة عظمية تجعل النّاس يشدّون إليه الرّحال من أجل قضاء حوائجهم، يقول الشّاعر "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص216- 217)

فلا تُنْكرُوا منّي بعيداً فمجدهُ نوادرُ قد أوحت إليَّ النّوادرا
يحُجُّ ذَراهُ الدّهرَ عافٍ وخائفٌ جُموعاً كما وَافَى الحجيجُ المشاعرا
فَزُرْ مكّةً مهما اقترفت مآثماً وزُرْ أُفْقَهُ مهما شكوت مفاقِرا

نلحظ الشاعر في هذا النّص بالغة أيّما مبالغة، عندما شبه كثرة ازدحام الناس حول بيته بجموع الحجيج في مناسك الحج، وصورة عظمة المعتصم هذا عند الزّيارة إلى داره تخفّف عنك الفقر وتكاد تقضي عليه، كما زيارة مكة المكرمة تخفّف عنك المآثم أو تكاد تمحوها.

المبحث الثّالث

الخصائص الفنّيّة لصورة الممدوح

ولمّا أمضى ابن الحدّاد معظم وقته في بلاط المعتصم، كونه مقرّباً إليه وخير جليسٍ له، فقد صدرت معظم مِدَحِهِ فيه، وكان فيها طويل النّفس الشّعري، بحيث تجاوز كثير منها المئة، ومنها ما نيّف على الأربعمائة، وهو مهما أطال فيها فإنّ نسجه لم ينحطّ، وبقي على متانته وقوّة سَبْكه.

ومن خلال مدائحه في المعتصم التي عثرنا عليها في ديوانه، نقف على مميزات وسمات واضحة تميّز بها شعر المديح عنده. ولعلّ أول ما يلحظ هو استفتاح مدائحه على طريقة شعراء الجاهلية، كأنْ يصف رحلة محبوبته وانتقالها إلى بلدٍ غير الذي تقيم فيه، كما كانت الأعراب تنتوي في باديتها، ثم ينتقل إلى موضوع المديح، أو يستفتحها بالغزل ثم يخلص إلى موضوعه الرئيسي. ومن الأمثلة في ذلك قوله "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص173)

نَوى أَجْرَتِ الأفلاك وهي النّواعِجُ وأطْلَعتِ الأبراج وهي الهوادِجُ
طَواوِيسُ حُسْنٍ رَوَّعَتْنِي بِبَيْنِهَا غَرَابِيبُ حُزنٍ بالفِراقِ شَوَاحِجُ

وهنا يستفتح مديحه، على طريقة شعراء الجاهلية، فيص لنا رحلة محبوبته وانتقالها إلى بلدٍ غير الذي تقيم فيه، كما كانت الأعراب تنتوي في باديتها. ولسرعة ناقتها وارتفاع هودجها فقد جارت الأفلاك والأبراج. وهنا مبالغة من الشّاعر واضحة. ومن هنا تشائم الشّاعر لدى رحيل محبوبته فتبدو صورة الحاضر والمستقبل أمامه قائمة كالحة، ممّا يذكره بأصوات الغِربان التي تنذر دائماً بالفراق. وقد شبّه محبوبته بالغراب بجامع الخبث؛ وذلك لابتعادها عنه وعدم الالتفات إليه. ومن ثم يخلص الشّاعر من هذه المقدمة إلى غرض المديح بقول "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص175)

وما الدّهرُ إلّا ليلةٌ مُدْلَهِمَّةٌ وكونُ ابن مَعْنٍ صُبْحُها المُتَبَالِجُ
كأنّك في الأمْلاكِ نُقطةُ دائرٍ وأمْلاكُها منها خطوطٌ خَوارِجُ

ومديح الشّاعر يشير بأنّ المعتصم ملك ملوك الطّوائف؛ فهو الأصل وهم الفرع.

وفي قصيدة أخرى استفتحها بالغزل، قوله "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص161)

خَليليَّ مِنْ قَيسِ بن عَيْلانَ خَلِّيَا رِكَابي تُعَرِّجْ نَحوَ مُنْعَرَجَاتِها
بِعَيْشِكُما ذاتِ اليمين فإنّني أراحُ لِشَمِّ الرّوْحِ مِنْ عَقَدَاتِها

تجهز فإمَّا أَن تزور ابن ضابئ عُمَيْرًا وَإِمَّا أَن تزور المهلّبا
هما خطّتا خسف نجاؤك مِنْهُمَا ركوبك حوليا من الثّلج أشهبا

والأبيات توّضح أنّ الشاعر سار على طريقة الشّعراء الجاهليين، فيخاطب خليلين من آل قيس عيلان، كأنما يريد أن يذكّرنا بأنه ينتمي إلى قبيلة عربية عريقة في القِدم. وبمجرّد شمّ الشّاعر لنسيم عَقدَاتها (حيث منزل المحبوبة) فَيُسَرُّ وتأخذه خفّة وأريحيّة. وبعد المقدّمة الغزليّة لهذه القصيدة، يخلص الشّاعر إلى غرض المديح بقوله "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص165)

غَرامٌ كإقدامِ ابن مَعْنٍ ومَغْرَمٌ كإنْعَامِهِ والأرضُ في أزَمَاتِها
فتى البأسِ والجُودِ اللّذينِ تباريا إلى غايةٍ حَازَا له قَصَبَاتِها

وفي هذا التّخلص يمجّد الشّاعر ممدوحه بالإشفاق على رعيّته، شديد التّعلق بها، يُنعم عليها حتى في أيّام الجدب والمَحْل ويوم لا تُغِلُّ الأرض. وبهذا فإن المعتصم بذَّ أقرانه من ملوك الطّوائف في البأس والجود معاً.

ومن سمات الخصائص الفنيّة الأخرى في شعر المديح لابن الحدّاد الصّورة الشّعريّة الجميلة المبتكرة، سواء كانت بيانيّة كالتشبيه والاستعارة والمجاز، أو بديعية كالجناس والاقتباس، وهما من المحسّنات اللّفظيّة، والطّباق والتّرديد والغلوّ والمبالغة، وهي من المحسّنات المعنويّة. وسنعرض هذه الصّور البلاغيّة مقدّمين نموذجاً لكلّ منها، علّنا بذلك نلقي بعض الضوء على ما كانت عليه موهبته الشّعريّة وما كان عليه فنّه وخياله.

ففي التّشبيه يقول من قصيدة في مدح المعتصم "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص122)

كأنّ سُمْرَكَ والإقبالُ يَعْطِفُها بَنَانُ قومٍ إليهم بالرّدَى ومأُ

يشبّه الرّماح التي تنثني في أيدي جند المعتصم، وهو يقاتلون عدوَّهم، بأنامل أناسٍ يشارفون على الموت، وذلك بجامع اللّين والضعف؛ لأنّ الرّماح توصف باللّين والطّول والصّلابة، وأطراف المُحْتَضَرِ توصف بالضّعف وعدم القدرة على الحركة. والتّشبيه تمثيل، وهو من التّشابيه المبتكرة في دنيا الأدب.

وفي باب الاستعارة يوفق ابن الحدّاد في وصفه للمعتصم "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص197)

إذا صَافَحَتْهُ الرّيحُ تَصْقُلُ مَتْنَهُ وتَصْنَعُ فيه صُنْعَ داودَ في السَّرْدِ

يستعير المصافحة من الإنسان إلى الرّيح، بإنسانٍ يضع درع الكَمِيّ الشّبيه بدرع النّبيّ داود- عليه السّلام. والاستعارة مكنيّة لأنّه حذف لفظ المشبّه به وهو الإنسان وذكر لفظ المشبّه وهو الرّيح. وبذلك تكون المصافحة اللّفظ المستعار، والرّيح مستعاراً له، والإنسان مستعاراً منه.

وفي عجز البيت يقتبس من القرآن الكريم قوله تعالى: **{أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ...}** (سبأ، 11)

ويقول في المجاز من قصيدة في المعتصم "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص115)

وللثُّغُورِ بِذِكْرَى عَدْلِهِ وَلَعٌ وللقلوبِ لِمَثْوَى حُبِّهِ لَطَأُ

فكلمة (الثّغور) مجاز مرسل، ويقصد بها الألسنة، فذكر الكل وأراد الجزء. والعلاقة بين الثّغور والألسنة قائمة على غير المشابهة، وهي العلاقة الكلّية.

ومن الجناس قوله في المعتصم "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص120)

وحيثُ ما أزْمَعَتْ عُلياكَ واعتزمتْ حَدَا جَحافِلَكَ التأييدُ والحَدَأُ

يتلاعب الشّاعر بالألفاظ فيستعمل الجناس بين (أزمعت) و (اعتزمت) وبين (حدا) و (الحدأ) ليزّين به شعره، وكلاهما جناس ناقص.

وفي الطّباق قوله من قصيدة في المعتصم "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص115)

وكلُّ ما شاءَ مِنْ حُكْمٍ ومُحْتَكَمٍ يمضي على ما أحبُّوا منه أو نَدَأُوْا
والعدلُ ألْزمُ ما تُعْنى الملوكُ به فَلْيُزْجَرُوا عن سبيل الحَيْفِ ولْيزأُوا

وفي البيت الأول يطابق بين (أحبوا) و (ندأوا) وفي البيت الثاني يطابق بين (العدل) و (الحيف).

ولم ينس أن يضفي على شعره مسحة من جمال التّرديد، فقال من قصيدة في المعتصم "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص114)

يَقِلُّ أنْ يطأ العَيُّوقُ أخْمَصَهُ وكلُّ مَلْكٍ على أعقابِهِ يَطَأُ

والترديد هنا في كلمة (يطأ) حيث أعادها الشاعر في آخر العجز بعد أن ذكرها في حشو الصدر.

ومن شواهد الغلوّ والمبالغة قوله من قصيدة في مدح المعتصم "الطويل" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، 201)

فَمِنْ جُودِهِ ما في الغَمامةِ مِنْ حَيا ومِنْ نُورِهِ ما في الغَزالةِ مِنْ وَقْدِ

فغلوُّ الشاعر واضحٌ في وصف كرم الممدوح، بحيث جعل الغمامة تمتلئ مطراً من جوده، وجعل الشمس تقتبس نورها من إشراقة وجهه أو نور عدله.

كذلك كان له مشاركة في علم المعاني، فاستعمل الاستفهام بمعانٍ أخرى خارجة عن معاني الاستفهام الأصليّة، كالنّفي، وما أشبه ذلك. يقول من قصيدة في المعتصم "البسيط" : (ابن الحدّاد، 1410ه/ 1990م، ص116)

وكيف يَلْقَى قَناةَ الدّهرِ قائمةً وفَوْقَنا لِقِسِيّ الشّهب مُنْحَنَأُ؟

البيت بصيغة الاستفهام، إلّا أنّه يفيد النّفي؛ أي إنّ المعتصم لن يُبقي قناة الدّهر منتصبةً أمامه، وسوف يكسرها بقوّة شكيمته قبل أنْ تصيبه بأذاها.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات، وأصلّي وأسلّم على النَّبيّ المصطفى وعلى آله وأصحابه المستكملين الشُّرفا، وبعد:

جاءت هذه الدّراسة تحت عنوان: **(أضواء حول اتّجاهات صورة الممدوح للشّاعر ابن الحدّاد الوادي آش في مديح- المعتصم بن صُمادح- حاكم دولة المريّة الأندلسيّة).** ومن هنا توصّل الباحث إلى عددٍ من النتائج منها:

1- احتلّ مضمون الشّجاعة المرتبة الأولى في رسم صورة الممدوح ولعلّ ذلك ناتج عن امتلاكه قيمة اجتماعية عليا فضلاً عن حبه للسلطان المعتصم على أن يوصفه بمثل هذه الصفات للدلالة على عظمة سلطانه وقوته، وفيه جانب إعلامي في إظهار قوته أمام العدو، لذلك نجد الشاعر أهتم بهذا المضمون أكثر من غيره.

2- جاءت صورة الكرم في المرتبة الثّانية وذلك لما تحمله من قيم اجتماعيّة، ولكن تكاد تنحصر صور الكرم في التّشبيهات العاديّة

من تشبيه الممدوح بالبحر والمطر وإن كانا يحملان دلالة الكثرة والشّمول ولكن كنّا نبحث عن الجدّة في الوصف وهذا ما عهدناه في خيال الأندلسي إلا أنّ مثل هذه الصّور المبتكرة كانت نادرة.

3- حاول الشّاعر المزج بين مجموعة من القيم في وصف ممدوحه، وإحاطتها جميعاً بالصّلاح والتّقوى لإضفاء هالة دينيّة على الممدوح

وكأنّما كل تلك الصفات كانت في خدمة الدّين.

4- اعتمدت صوره في كثيرٍ من الأحيان على الصّورة الذّهنيّة أكثر من الحسيّة في حين الحسيّة أوضح في الوصف وذلك لكون

الحسيّة تصف شكل الممدوح وهذا ما لا يهتّم به الممدوح والشّاعر على حد السّواء، في حين وجدناه في صور أخرى مزج فيها الحسي بالذّهني وأظهر صوراً جميلة للممدوح تحمل قيم عليا.

5- زَيَّنَ الشّاعر صورة الممدوح بخصائص فنّية رائعة، ولعلّ أول ما يلحظ منها هو استفتاح مدائحه على طريقة شعراء الجاهلية، كأنْ

يصف رحلة محبوبته وانتقالها إلى بلدٍ غير الذي تقيم فيه، كما كانت الأعراب تنتوي في باديتها، ثم ينتقل إلى موضوع المديح، أو

يستفتحها بالغزل ثم يخلص إلى موضوعه الرئيسي. إضافةً إلى الصّورة الشّعريّة المبتكرة، سواء كانت معانيّة، أو بيانيّة، أو بديعيّة.

التوصيات:

أوصي الباحثين بالآتي:

- إن الشعر الأندلسي غزير المادة العلميّة، متعدّد في أغراضه وأشكاله الفنّية فيحتاج إلى الكثير من الدّراسات التّي تتناول هذه الجوانب.

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.

2- ابن الأبّار: محمد بن عبد الله بن الأبّار (1415ه/ 1995م) التكملة لكتاب الصلة (ط1، ج1) لبنان، دار الفكر للطباعة.

3- ابن الأبّار: محمد بن عبد الله بن الأبّار (1985م) الحلة السيراء، (ط3، ج2) القاهرة، دار المعارف.

4- ابن بسّام: أبو الحسن علي بن بسّام (1981م) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ط1، ج2) ليبيا، الدار العربية للكتاب.

5- ابن الحداد: مُحمد بن أَحمد بن عثمان أَبو عبد الله القَيسِي الأندلسي، المعروف بابن الحدّاد (1410ه/ 1990م) ديوان ابن الحدّاد (ط1) بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

6- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (1423ه) الشعر والشعراء (ط2، ج1) القاهرة، دار الحديث.

7- ابن هانئ: أبو القاسم محمد بن هانئ (ب ت) ديوان ابن هانئ الأندلسي، دمشق، دار العلم للملايين.

8- أبو علي: الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي (1401ه/ 1981م) زهر الأكم في الأمثال والحكم (ط1، ج1) المغرب، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء.

9- أيبك: صلاح الدين خليل بن أيبك (1420ه/ 2000م) الوافي بالوفيات (ج2) بيروت، دار إحياء التراث.
10- البطل: علي البطل (1981م) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها (ط2) بغداد، دار الأندلس.
11- التلمساني: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (1979م) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (ط1، ج7) بيروت، لبنان، دار صادر.
12- الجاحظ: أبو عثمان الجاحظ (1969م) الحيوان (ط3) بيروت، دار إحياء التراث العربي.
13- الجمحي: محمد بن سلّام الجمحي (ب ت) طبقات فحول الشعراء (ج1) جدة، دار المدني.
14- الزبيدي: محمد بن محمد بن عبدالرزاق الزبيدي (1306ه) تاج العروس في جواهر القاموس (ط1، ج12) القاهرة، المطبعة الخيرية.
15- الصائغ: عبد الإله الصائغ (1987م) الصورة الفنية معياراً نقدياً (ط2) بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.
16- الطّائي: حاتم الطّائي (1423ه/ 2002م) ديوان حاتم الطّائي (ط2) بيروت، دار صادر للطباعة والنشر.
17- عباس: إحسان عباس (1955م) فن الشعر (ط1) بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر.
18- عصفور: جابر عصفور (1983م) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب (ط2) بيروت، لبنان، دار التنوير للطباعة والنشر.
19- عفيفي: محمد صادق عفيفي (1978م) النقد التطبيقي والموازنات (ط3) القاهرة، مكتبة الخانجي.
20- غزوان: عناد غزوان (1994م) مستقبل الشعر وقضايا نقدية (ط2) آفاق عربية، دار الشؤون الثقافية العامة.
21- عزوان: عناد غزوان وآخرون (1974م) الشعر والفكر المعاصر- الشكل والمضمون في الشعر العربي المعاصر (ط7) الجمهورية العراقيّة، وزارة الأعلام.
22- المراكشي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عذاري المراكشي (1983م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ط3، ج2،) بيروت، لبنان، دار الثقافة.
23- هدية: محمد علي هدية (1984م) الصورة في شعر الديوانيين بين النظرية والتطبيق (ط1) دمشق، دار العلم للملايين.